كتاب جديد

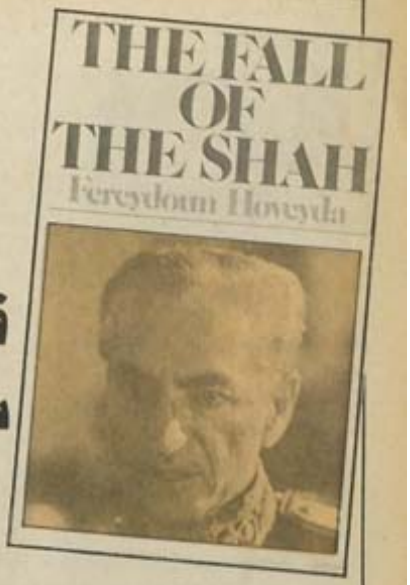

قصة سقوط الشاه

٢

« بوصول الخمينى إلى فرنسا واشتراك العمال فى الثورة مستخدمين سلاح الإضراب بدأت الأرض تهتز بعنف تحت قوائم العرش الإمبراطورى .

نعم . . لقد أخذ الشاه نفسه يترنح فوق العرش . وبدأ لأول مرة سلسلة من التراجعات ، لن تنتهى إلا بخروجه من إيران كلها » .

الطريق إلى الهاوية

● المؤلف : فريدون هوفيدا . لامع الشاه ولامع الخمينى .

يرويها : فريدون هوفيدا

يقدمها : عبد العظيم حماد

كان أول هذه التراجعات ما أعلنته حكومة إمامى – بإيعاز من الشاه طبعا – من رفع للحظر على عودة المعارضين المنفيين فى الخارج . دون قيد أو شرط . إلا احترام الدستور . وعلى غير توقع سارع حزب راستاخيز إلى حل نفسه معلنا بذلك إفلاس سياسة الحكم الشاهانية . وسقوطا إلى غير رجعة أحلام « الحضارة العظمى » التى كان عليه الوصول بالإيرانيين إليها . وشعار « وحدة الشعب خلف التاج » الذى رفعه منذ تأسيسه حزبا وحيدا فى البلاد .

ولكن ذلك لم يجد فتيلا . لأنه لم يرتبط بإعلان عودة الحكم الديمقراطى الكامل . وإسناده إلى إئتلاف من الساسة ورجال الدين المعتدلين الذين يحظون باحترام الشعب . ولا يريدون إسقاط النظام الملكى برمته . فاستمرت الإضطرابات العمالية . واتسع نطاقها . بل أصبح العمال بالفعل جزءا من قوى الثورة . حين توالت مطالبهم من مجرد رفع الأجور إلى العفو عن المعتقلين وإطلاق الحريات .

هنا أيضا تراجع الشاه . ولكن كعادته . دون أن يرضى أحدا . فأعلن عفوا جزئيا عن المعتقلين بسبب المظاهرات الأخيرة . ولكن لم تكد تمضى ستة أيام على إعلان هذا العفو حتى اندلعت الاضطرابات مرة أخرى فى حمدان ومشهد وقم وكرمان . وخلال هذه الاضطرابات أحرق مسجد كرمان . وحمل الشعب السافاك تبعة هذه الجريمة مرة أخرى .

وكان القدر من الحرية الذى منحته حكومة شريف إمامى للصحافة قد بدأ يثير ضيق الجبرالات إبان تلك الأحداث . فحاولوا إعادة الرقابة على وسائل وأجهزة الإعلام . وهكذا بدلا من أن يسعى النظام إلى كسب تأييد الفئات التى ظلت . رسميا على الأقل . على الحياد . إذا به يسعى جاهدا لكسب عدائها . إذ لم يجد الصحفيون بدا من الاشتراك فى الثورة عن طريق الإضراب العام .

فى تلك الأثناء أيضا احتدمت الصراعات بين أنصار الشاه المقربين . . فزاهيدى الابن يخطط لإفشال سياسة الحكومة . على أمل أن يحل محل إمامى . وهو شانح نهاتانوى السكرتير العام السابق للإمبراطورة ثم حزب راستاخير . يحاول إزاحة زاهيدى وإمامى من طريقه . فيما استمرت مؤامرات الأمراء والأميرات . ولكى يوقف الشاه تدخلهم فى شئونه قرر نفى جميع أعضاء الأسرة المالكة إلى الخارج .

وقد ارتبطت هذه الأحداث بتدفق معلومات مؤكدة عن قيام جميع أعضاء الطبقة الحاكمة . وعلى رأسهم أعضاء أسرة بهلوى . بتهريب أموالهم وما استطاعوا جمعه فى اللحظات الأخيرة . إلى الخارج . وساعدت هذه المعلومات على تغليب تيار المتطرفين على التيار المعتدل بين صفوف المعارضة . وفى هذا الجو راجت شائعات تقول إن الغرب سحب تأييده للشاه بسبب اقتناعه أخيرا بأن حكما إسلاميا قويا فى إيران سيكون هو السد المنيع بين الشيوعية وبين الخليج . وبديهى أنه كان لهذه الشائعة مفعول السحر فى شد أزر الثائرين .

الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون ملأ نفس الشاه بالغرور وشجعه على احتقار المعارضة

وهكذا بينما كانت الشاهبانو تتساءل فى حسرة : لماذا لم يخرج مؤيدونا إلى الشارع مثلما فعل مؤيدو ديجول فى الشانزليزيه عام ١٩٦٨ ؟ وبينما كانت تتلقى الجواب الساخر فى مرارة : إنهم مستعدون لأن يفعلوا ذلك . . ولكن فى الشانزليزيه وليس فى طهران . . كان الخمينى فى نوفل لوشاتو الضاحية الباريسية الأنيقة . يعلن برنامجا سياسيا محددا لإقامة جمهورية إسلامية تحل محل امبراطورية آل بهلوى . . إنها النهاية إذن . . لقد تحول الرجل من زعيم دينى إلى رمز تلتف حوله جميع قوى الثورة الشعبية .

إصلاح ناقص

لقد الحد الشعب الإيرانى مرة أخرى ضد العرش . الجميع وراء الخمينى . . اليمين واليسار . . العمال والموظفون . . التجار الصغار وكبار الرأسماليين . . الفلاحون وسكان المدن . . رجال الدين وعامة المتدينين . وهذه ظاهرة لم تحدث منذ أوائل الستينات . . فما هى الأسباب يا ترى ؟

حقا كان الأمر مفاجأة لعالمية المراقبين الذين رأوا بإعجاب برامج الإصلاح الاجتماعى الخيرال نعمة الله ناصيرى . . رئيس السافاك ومن أهم أسباب كراهية الشعب للعرش .

● الأميرة أشرف ممنوع قبل الكلاب الضالة إلا بعد سفرها إلى الخارج

والاقتصادى التى أحدّ الشاه بضعها بنفسه ويباشر تنفيذها بنفسه أيضا منذ ذلك التاريخ . ألم ينجح الشاه أخيرا فى القضاء على الإقطاع بكل مساوئه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ألم يصبح الفلاح مالكا لأرضه لأول مرة فى التاريخ الفارسى ومتحررا من رابطة التبعية المرهقة لسيد الأرض ؟ أليس الشاه هو الذى ملك العمال ٤٠٪ من أسهم الشركات التى يعملون بها وضمن لهم نصيبا مجزيا من أرباحها ؟

أضف إلى كل ما تقدم التوسع فى التعليم وإقامة الصناعات الثقيلة ، وتصفية الوجود العسكرى الأجنبى فى إيران ، والانفتاح على الاتحاد السوفيتى الجار المخيف ، وبناء قوة عسكرية إيرانية مرهوبة الجانب ، لتكون مع القائلين : إن كل شىء فى صالح الشاه وها هى ذى بعض الأرقام التى تعزز هذا القول .

فى سنة ١٩٧٧ كان وجه الحياة قد تغير كلية فى إيران عما كان عليه حين بدأ الشاه إصلاحاته عام ١٩٦٣ . لقد أصبح ٦٥٪ من الإيرانيين يملكون مساكنهم ، وأصبح متوسط الدخل الفردى ٢٢٠٠ دولار سنويا ، وبلغ عدد تلاميذ المدارس الابتدائية أكثر من مليون تلميذ ، وانخفضت نسبة الأمية من ٨٥٪ إلى ٥٥٪ .

وكذلك انخفضت نسبة البترول فى الدخل القومى الإجمالى إلى ٣٥٪ فقط ، وذلك بسبب التوسع الزراعى الصناعى الذى كان أبعد ما يكون عن صناعة التجميع التى تعرفها معظم الدول النامية ، لأن إيران كانت تصنع محليا ما يزيد على ٦٥٪ من مكونات مصنوعاتها النهائية ، (ينسب المؤلف الفضل فى كل تلك الإنجازات إلى شقيقه أمير عباس هوفيدا الذى ظل يرأس حكومة ايران منذ ١٩٦٥ إلى ١٩٧٧) .

ولكن ذلك الإصلاح ، وتلك هى شواهده ، ظل ناقصا بسبب عدم إدراك الشاه لحقيقة بديهية هى أن أى تحسن فى الظروف « المادية » لمجتمع من المجتمعات لابد أن يواكبه تحسن فى الظروف السياسية ، إذ كيف ينسى مجتمع ارتفعت فيه نسبة التعليم وارتفع فيه معدل الدخل ، أن يحافظ على توازنه دون قدر مواز من التقدم فى طريق حرية التعبير ، ودون قدر مناسب من المشاركة فى صنع القرار السياسى ؟ لقد كان ذلك هو بالضبط مقتل نظام الشاه ، وإن كان الأمر قد بدا حيا بدأت الاضطرابات فى أوائل السبعينات على شكل هجمات فدائية قابلا للسيطرة عليه .

وربما كان ذلك الانطباع هو ما جعل الشاه يتعامى عن عمد وسبق إصرار عن معنى هذه الأحداث ، بحيث تحول الرجل الذى بدأ ملكا مستنيرا فى منتصف الستينات إلى طاغية شديد القسوة فى أوائل السبعينات . لقد أخبرنى أعنى ذات مرة بعد عودته ثوا من اجتماع مع الشاه بأنه لم يعد يعرف ماذا حدث للإمبراطور ، وقال بالحرف الواحد : إنه لم يعد يحاول حتى مجرد الاستماع إلى أحد ، وإن المناقشات تدور كأنها فوق أعصابه .

السر الأعظم

لابد أن هناك سرا وراء تكوص الشاه عن طريق الإصلاح قبل أن يصل إلى نهايته ، ولابد أن شيئا قد أعطاه الأمان بحيث أصبح موقنا أن مجرد ترديد الشعب لصدى نداءات ومطالبات زعماء المعارضة ، فضلا عن نجاح هؤلاء الزعماء فى تحديه ، بات أمرا غير وارد جملة وتفصيلا . ولن يكون هذا السر سوى الدور الذى عهد به فريق نيكسون - كيسنجر - إلى الشاه فى الخليج ، أى اضطلاع إيران الشاهانية بمهمة ملء الفراغ الذى خلفه رحيل البريطانيين عن المنطقة ، الأمر الذى ملأ نفس الشاه بالغرور والشعور المتضخم بالأهمية مضافا إليه ارتفاع أسعار البترول بسبب مذهلة مبادرة من الشاه بنفسه .

لقد تصادف أن يكون نيكسون الصديق القديم للشاه ، والرجل المعروف بعدائه الأرثوذكسى للشيوعية ، وازدرائه للمعارضة الشعبية ، هو الذى يجلس فى البيت الأبيض فى واشنطن ، فى الوقت الذى أعقب رحيل البريطانيين عن الخليج ، وفى الوقت الذى أطلت فيه المعارضة الشعبية للشاه برأسها من جديد .

وهنا طبق نيكسون وكيسنجر مذهبهما فى الاعتماد على القوى الاقليمية الصديقة فى الدفاع عن مصالح الغرب ، مقابل إمدادها بكل أسباب القوة ، وبناء على ذلك راح نيكسون يشجع الشاه على الضرب بيد من حديد على أيدى المعارضين ، بل إنه نحى أن تكون له قوة الشاه على قمع معارضى حرب فيتنام من الطلبة الأمريكيين ، ومن ناحية أخرى فتح نيكسون وكيسنجر الترسانة الحربية الأمريكية على مصراعيها أمام الشاه ، ليتمكن من القيام بدوره فى الاستراتيجية الأمريكية الجديدة على الوجه الأكمل . وكانت تلك قصة أخرى ساهمت فى قصم ظهر البعير .

ومن جانبه تعجل الشاه النتائج فتطلع نحارا نبلة ، ولم يكن ذلك سوى اندفاعه إلى رفع أسعار البترول رغم معارضة كبار مستشاريه الاقتصاديين ، وعلى رأسهم رئيس وزرائه أمير عباس هوفيدا فكان رفع أسعار البترول بمثابة السهم الذى ارتد إلى صدر مطلقه .

لقد اعتقد الشاه أن المسألة الاقتصادية لا تعدو

● د. هنرى كيسنجر . كان للشاه دور رئيسى فى استراتيجيته

● نيكسون مع الشاه عرض مسرحيته هامت وماكبث لأن بهما ملوكا يخطئون

● جامشيد آموزيجار . الرجل غير المناسب فى الظرف غير المناسب

أن تكون مسألة مال ، وهو برفع أسعار البترول بنسبة ٤٠٠٪ ، كما حدث خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط ، سيضمن لإيران عائدات ملكية تمكنها من الإسراع بخططها الإنمائية ، ومن شراء كل ما تحتاج إليه من أسلحة متطورة ، لتصبح فى غضون بضع سنوات القوة الخامسة فى العالم بعد الولايات المتحدة وأوروبا الغربية والكتلة الشيوعية واليابان ، وعليه فقد تجاهل حقيقة أن اقتصاد بلاده لن يستطيع استيعاب هذه الطفرة دون خسائر فادحة قد تؤدى به .

وبالفعل فقد أدى رفع أسعار البترول إلى إطلاق غول التضخم من عقاله ، وحدث رواج مصطنع ، خلق مناخا مناسبا للرشوة والسمسرة واستغلال النفوذ .

وهى أمور كان البلاط محورها جميعا ، وعملت التقلبات التى سادت سوق البترول الدولية على عدم استقرار السياسة الاقتصادية الإيرانية ، فعدلت الخطة الخمسية للتنمية أكثر من مرة ، وراح الحجم الهائل للإنفاق العسكرى يؤكل المرتفعات الخرافية العامة للإفلاس فى السيولة النقدية ، وكعادة الحكام المستبدين ، لم يكن أمام الشاه فى هذه الحالة التى أوصلت إيران إليها سياساته المرتجلة غير مطالبة الشعب بالتضحية ، ولم لا ؟ فالشعب قد أثرى دون أن يضحى بشىء ، على حد قول الشاه ، لصحيفة كيهان يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٧٦ .

تدشين الديكتاتورية

ودون أسباب سياسية مقنعة قرر الشاه فى أغسطس عام ١٩٧٧ إقالة أمير عباس هوفيدا من رئاسة الحكومة ، وإسنادها إلى وزير الداخلية والبترول جامشيد آموزيجار ، واعترافا من الشاه بخدمات هوفيدا أسند إليه منصب وزير البلاط .

والحق أن هذا القرار جاء بردا وسلاما على قلب أمير عباس ، لأنه شعر فى أيام حكمه الأخيرة أن الشاه أثقل سفينة الدولة بالأعباء ، إلى حد أنه لم يعد قادرا على جرها ، ولأنه حاول الاستقالة ذات مرة دون جدوى ، فلم يكن أمامه مخرج من هذه المحنة سوى الموت ، وقد حكى لأحد أصدقائه ذات مرة أنه ما من ليلة يذهب فيها إلى سريره إلا يدعو الله أن يقبضه إليه .

وقد كان آموزيجار على النقيض تماما من عباس هوفيدا ، فهو رجل يعطى الاقتصاد أولوية على السياسة ، وقد أحاط نفسه بمجموعة من الخبراء الشبان ، وأبعد عن دائرة مستشاريه كل السياسيين المخضرمين ، فى الوقت الذى كان عباس هوفيدا يحرص فيه على الاتصال بالسياسيين من جميع الاتجاهات ، للمحافظة على مبدأ توازن القوى السياسية فى الداخل ، وكان معروفا أن رئيس الوزراء المقال ، على صلة طيبة بغلام مصدق نجل رئيس الوزراء الراحل والزعيم السابق للجبهة الوطنية الدكتور محمد مصدق ، كما كان على صلة وثيقة بأحد الزعماء الدينيين ، وأخشى ذكر اسمه الآن .

وقد كانت هذه الصلات ومرونة سياسة عباس هوفيدا إزاء المعارضة سببا رئيسيا وراء استبداله بآموزيجار الذى لم يطالب الشاه ، مثل سلفه ، بالحوار مع المعارضة ، ولا بمكافحة الفساد المستشرى داخل البلاط وفى حاشية الأميرات والأمراء .

إذن فكان المدلول السياسى لتولى جامشيد آموزيجار رئاسة الحكومة فى صيف عام ١٩٧٧ هو دعم سياسة القبضة الحديدية ، والشك فى مواجهة المعارضة . لقد كان الأمر إذن تدشينا للحكم الديكتاتورى المتعنت .

ومن الناحية الاقتصادية كانت سياسة حكومة

آموزجار أشبه بالكارثة من حيث آثارها الاجتماعية . فلقد بدأت الحكومة عهدها ببرنامج تقشف صارم . ولكن فى مجال الخدمات العامة والإنتاج فقط . ولم ينقص دولار واحد من ميزانية التسلح . ولا من مخصصات الشاه . فازدادت وطأة التضخم على أفراد الشعب . وفى الوقت الذى كانت تختمر فيه المعارضة الدينية . ألغى آموزجار الإعانات التى كانت تدفعها الحكومة للأئمة . والتى كانت تستخدم فى تمويل مدارس تحفيظ القرآن والإنفاق على المساجد .

ولسوء الطالع قررت الحكومة بناء خط حديدى جديد فى طهران غير السوق . مساهمة منها فى حل أزمة المواصلات . فغضب التجار وهم من العناصر الاجتماعية ذات الوزن السياسى الهام فى تاريخ إيران . هذا المشروع على أنه محاولة من جانب الشاه لتشتيت شملهم .

وكان ساعد المعارضة قد بدأ يشتد . فكانت السياسة الملائمة هى اللين والحوار . وكانت الظروف الاقتصادية قاسية بسبب سياسة الشاه . الحاطئة . فكان الأنسب هو خفض الإنفاق العسكرى ومكافحة الفساد . وكان رجال الدين وأتباعهم قد بدأوا يظهرون سخطهم علنا . فكان الأوفق هو التقرب منهم لا تحديهم مباشرة عن طريق إلغاء الإعانات الدينية وإلغاء التقويم الهجرى .

حقا كانت سياسة حكومة آموزجار هى ذروة عدم التوفيق . وكان رئيس الحكومة نفسه أصدق مثل لخرص الشاه غير المفهوم على اختيار الرجل غير المناسب فى الظرف غير المناسب .

جذور الأزمة

إذا كانت الأحداث الثلاثة الرئيسية السابق ذكرها : إتفاق بكسون كيسنجر والشاه . ورفع أسعار البترول . وتعيين آموزجار رئيسا للوزراء . تفسر تفاقم أزمة النظام الملكى فى إيران على عهد الشاه السابق محمد رضا بهلوى . فإن جذور الأزمة ذاتها تكمن فى الطابع الديكتاتورى للنظام .

وكان الشاه ديكتاتورا حتى أخمصه . وقد تكون القصة التالية أبلغ تعبير عن حقيقة شخصية الشاه . فقد حكى لى وزير الصحة السابق أنه قرر القيام بحملة لإبادة الكلاب الضالة فى أنحاء إيران . بعد أن تفاقم خطرها على الصحة العامة . ولكى كان عليه أولا أن يحصل على موافقة الشاه . التى حصل عليها بالفعل .

وقبل أن يبدأ التنفيذ فوجئ الوزير بأمر ملكى بإرجاء التنفيذ . لأن الأميرة أشرف تحب الكلاب . ولا تطيق أن تراها تقتل تحت سمعها وبصرها . وعلى الوزير تبعا لذلك أن ينتظر حتى تغادر أشرف إيران إلى الخارج فى زيارة مقررة لها أن تتم بعد عدة أسابيع ليبدأ حملته .

ولم يكن الشاه يفهم الملكية على أنها نظام للحكم فقط . إذ ان الملك لديه هو أكثر من حاكم ورث العرش عن أبائه وسيورثه لأبنائه . ولكنه بالنسبة للشعب مرشد ومعلم . بل إنه كحاكم يرأس السلطات الثلاث . التنفيذية والتشريعية والقضائية . فكان محمد رضا بهلوى

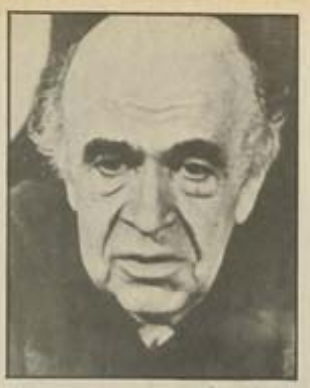

عباس هوفيدا . ظل يرأس الحكومة من عام ٦٥ – ١٩٧٧ .

قد جاء بعد ثلاثة قرون من الزمان . أى بين الثورات والدماء . ليحاكى لويس الرابع عشر فى قولته المشهورة « أنا الدولة » .

وكان من نتائج ذلك أنه لم تكن فى إيران يوما ما حكومة واحدة . ولكن كانت هناك دائما عدة مراكز للنفوذ . لعل أضعفها هو الحكومة الرسمية . وكان كل مركز من مراكز النفوذ تلك على اتصال مباشر بالشاه . حتى إنه كان على اتصال بالوزراء مباشرة متجاوزا رئيس حكومته .

وكان أسد الله علام وزير البلاط حتى عام ١٩٧٧ مثلا يتخذ قرارات اقتصادية خطيرة استنادا إلى وضعه فى القصر الملكى . وكذلك الحال بالنسبة للدكتور إقبال مدير الشركة الوطنية للبترول . وأما الجيش فكان مستقلا عن الحكومة بدوره . وكان هو والسياسة الخارجية ملكين خالصين للشاه . أما السافاك فحدث عنه ولا حرج . بالرغم من تبعيته اسميا لرئيس الوزراء .

وترتيبا على ذلك الوضع كان مستحيلا التنسيق بين أوجه النشاط المتعددة داخل البلاد . بل يمكن القول إن إيران كانت تعيش عصرا إقطاعيا فريدا من نوعه . هو عصر الإقطاعيات السياسية المستقلة . ويكفى مثلا أن نعرف أن النار كانت تطلق على المتظاهرين دون علم رئيس الحكومة . وأن رئيس الحكومة (هوفيدا) لم يعرف شيئا عن تدخل الجيش الإيرانى فى عمان إلا من وكالات الأنباء العالمية مثله مثل أى فرد آخر فى العالم ! !

وكان الشاه من جانب يضيق أشد ما يكون الضيق إذا عبر أحد – ولو من أخلص خلصائه – عن عدم استحسانه لقرار ما اتخذه هو . ولو لم يصل الأمر إلى حد المعارضة . من ذلك إقالته لرئيس أركانه الجنرال دحام عام ١٩٧١ لأنه انتقد خطط الشاه للتصادم العسكرى مع العراق فى ذلك الوقت .

وكان القمع بكافة صوره المتعارف عليها تاريخيا هو أسلوب الشاه المفضل فى التعامل مع خصومه ومعارضيه السياسيين . فى عصر اتفق فيه على أن المعارضة فى السياسة لا تعنى الخصومة . وكان السافاك أداة الشاه فى القمع يتلقى الأوامر منه مباشرة . وقد نجح هذا التنظيم الشيطانى فى تسميم حياة الإيرانيين من قمة المجتمع إلى قاعه .

فلم يكن أحد يجرؤ على الحديث عن خواطره علنا . أما عن الاعتقال وانتهاك الحريات المدنية والتعذيب والقتل سرا . فقل ما شئت . لا سيما إذا عرفت أن الشاه لا يرى فى الخصوم السياسيين أكثر مما يراه فى السفاحين ومهربى المخدرات الذين أصدر لهم جميعا قانونا يقضى بالإعدام الفورى على كل من تثبت عليه التهمة . ولكن بوسائل الإثبات المتعارف عليها فى كواليس السافاك .

أما القيود الرسمية على حرية التعبير . لا عن التفكير فحسب ولكن التعبير اللفظى أيضا . فكانت لا مثيل لها فى أى وقت وأى مكان . ويكفى أن تعرف أن الرقابة كانت تمنع تداول عرض مسرحى هاملت وماكبث لشكسبير . لأنهما تتضمنان مشاهد يقتل فيها ملوك وأمراء . لكى تدرك مدى حمق النظام .

وكان كل ذلك يحدث فى الوقت الذى تتراكم فيه رائحة الفساد العطنة والتى يخرج جزء كبير منها من القصور الملكية . كل أنف فى إيران . ويمكننى أن أقول دون تجن إن كل حكومة شكلت فى إيران طوال الخمسين عاما الماضية جعلت مكافحة الفساد أول بند فى برنامجها . ولكن دون جدوى . بسبب عدم مساندة الشاه لجهود الحكومات . بل عرقلته لتلك الجهود فى بعض الأحيان . ولا يعنى هذا أن كل رؤساء وزارات الشاه ووزرائه كانوا يتصفون بالنزاهة .

وربما كان موقف الشاه من هذه القضية يفسره أن أسرته كانت هى المصدر الأكبر للثراء الذى أصاب كل فئات المجتمع الإيرانى بحمى الفساد . لقد كان الأمراء والأميرات يتدخلون بالوساطة والسمسرة وأخذ العمولات فى كل عقد يبرم بين الدولة وبين أية جهة محلية أو أجنبية لتنفيذ المشروعات العامة . وكانوا يديرون شركات وأعمالا تدر عليهم أرباحا طائلة عن طريق استغلال النفوذ الصارخ .

وكم مرة هربت الأميرة أشرف مختلسين إلى الخارج . لأنهم كانوا شركاءها . وقد تلقى أخى عباس هوفيدا وهو رئيس الوزراء أمرا منها ذات مرة بهذا المعنى . وكشف تحقيق أجراه مجلس الشيوخ الأمريكى عن أن زوج الأميرة أشرف . وكان يشغل قائد سلاح الطيران . وابنها . قد حصلا على مبالغ ضخمة للغاية رشاوى لتحرير عدد من الصفقات مع شركات أمريكية . أما رئيس أركان القوات البحرية الأدميرال رمزى عطاى فقد حصل على عمولات تقدر بثلاثة ملايين دولار من عقود تسليح أبرمها مع الشركات الأجنبية .

وفى عام ١٩٧٧ منحت وزارة الصحة طبيب الشاه الخاص حق احتكار استيراد الدواء وإنتاجه محليا . وتم القضاء على مشروع لإنشاء مستشفيات عامة عن طريق بنك يؤسس خصيصا لهذا الغرض . تمهيدا للاستغلال . بأمر الشاه نفسه . وذلك بسبب تدخل الأمراء والأميرات الذين صمموا على توزيع عقود البناء على محاسيبهم بتقدير عمولات ضخمة .

وقد وصل الأمر إلى حد بيع وجبات المدارس الجاهزة فى الأسواق دون خوف من حسيب أو رقيب .

ويقول كاتب أمريكى إن الشاه نفسه لم يكن فوق مستوى الشبهات فى هذه التصرفات الصغيرة . رغم أن أموال إيران كلها كانت تحت تصرفه . وقد أنشأ الشاه مؤسسة بهلوى لتكون بمثابة مبرر لإثراء أفراد أسرته بطريقة غير شرعية على حد تعبير هذا الكاتب الأمريكى .

وكان الشاه هو نفسه الذى رتب عملية تهريب أحد أصدقائه المقبوض عليهم فى سويسرا بتهمة تهريب المخدرات . وتم ذلك فى طائرة الشاه الخصوصية . وجرت تلك الواقعة فى وقت كانت حكومة إيران تقوم فيه بحملة على مهربى المخدرات . ليس هذا فحسب بل إن الأمير محمود رضا الذى احتكر زراعة الخشخاش فى مزارعه كان المصدر الأكبر لتجارة المخدرات المهربة فى إيران .

ومما ضاعف من سخط الشعب على أسرة بهلوى انهيار الجانب الأخلاقى الدينى لديها . فلم ينس الشعب المتدين أن الشاه بنفسه كان وراء إعداد جزيرة كيش فى الخليج مكانا للهو والخلاعة . فأقام فيها نوادى للقمار ومراكز لبيع المتعة المحرمة . عن طريق استيراد البغايا بالطائرة من فرنسا من بنات مدام كلود الشهيرة فى باريس . وذلك كله بحجة تشجيع السياحة .

وكان الإيرانيون يتابعون بسخط بالغ أنباء خسائر الأميرة أشرف على موائد القمار فى أوروبا . وزاد من سخطهم السلوك الشائن التى كانت تسلكه الأميرة شمس الملوك الشقيقة دائما فى الغرب . والتى قيل إنها تحولت إلى الكاثوليكية .

أما الشاه فهو من جانبه لم يحرص على مراعاة المشاعر الدينية لشعبه . لدرجة أنه لم يذهب مرة واحدة لأداء الصلاة فى أية مناسبة دينية وسط رجال الدين وأفراد الشعب فى أحد المساجد العامة .

لقد أسفرت كل تلك الأخطاء عن استفزاز المعارضة ورجال الدين . وإقناعهم بأن لا أمل فى التفاهم مع مثل هذا النظام . كما أسفرت عن تدهور الأوضاع الاقتصادية . واستثارة الأعداء للشاه فى الداخل والخارج على السواء .

ولكن أخطر تطور شهدته الساحة السياسية فى إيران فى الأونة التى سبقت سقوط الشاه . كان هو ظهور فكر سياسى إسلامى عصرى على يد على شريعاتى أستاذ علم الاجتماع فى جامعة مشهد . الذى أظهر ما فى التراث الشيعى من مقومات للحكم العادل وللنضال فى سبيل الثورة ومكافحة الاستعمار . وإحياء التقليد الشيعى الأشهر فى الإقبال على الموت استشهادا فى سبيل الحق .

وكان هذا العاملان مما سبب استقطاب دعوة الخمينى للطلاب الذين كانوا وقود الثورة . ثم انضمام سائر الإيرانيين بعد أن شق الشاه بنفسه طريقه إلى الهاوية .

ومرة أخرى ما كان الشاه ليكتفى عن طريق الإصلاح الذى بدأه ويسير فى طريق الهاوية لولا أن شخصيته نفسها كانت قد تطورت بطريقة مرضية . وهذا هو موضوع الحلقة التالية .